الأهرام

المصدر: الاتحاد

التاريخ : ١٨ مايو ٢٠٠٤

سجن أبوغريب: سقوط أخلاقي مريع

باسكال بونيفاس

مدير معهد العلاقات الدولية والاستراتيجية - باريس

إن على الغربيين أن يعوا بشكل واضح أن ما يكرهه الآخرون بشدة ليس منظومتهم القيمية، وإنما تناقضهم هم أنفسهم مع هذه القيم..

يمكن اعتبار المجندة الأميركية ليندي إنغلاند منذ الآن أبرز عريف تجنيد لمعسكرات ابن لادن. وعلى الأرجح أنها لا تعرف ذلك، وأنها لم تسعَ إلى اكتساب هذه الصفة عن وعي، ولكن ذلك لا ينقص شيئاً من كونها قدمت له خدمة كبيرة، من خلال العمل على دعم خطابه السياسي. وإلا، فبأية موازين يمكن أن نقيس الضرر الذي لحق بسمعة الولايات المتحدة في العالم الإسلامي، جراء ابتسامة ليندي إنغلاند العريضة في وجه عراقي مسكين، عذب وجرد من ملابسه تماماً؟

إن صور التعذيب التي نشرها الأميركيون، (والبريطانيون أيضاً)، بحق سجناء عراقيين، ستظل، على الأرجح، تثير موجة من الصدمة لفترة ممتدة، ليس فقط في العالم العربي، والإسلامي وحدهما، بل ستبقى لفترة طويلة عصية على النسيان وراسخة في الذاكرة الجمعية الإنسانية كلها. ومع أن المصاعب التي تواجهها قوات "التحالف" في العراق تتصاعد كل يوم، فإنها تبدو بسيطة للغاية مقارنة بمدى التردي الشديد الذي هوى بسمعة الولايات المتحدة في هاوية سحيقة لا قرار لها.

"إنها حالات معزولة وأخطاء يتحمل المسؤولية عنها جنود ضائعون، وعوقبوا فورا من قبل رؤسائهم العسكريين؟" هذا هو الطرح الرسمي الذي قدمته إدارة بوش التي لم تكتف فقط بعدم دفع وزير الدفاع دونالد رامسفيلد إلى الاستقالة، طوعاً أو كرهاً، بل سارعت مدفوعة برغبة مبيتة أو بلا وعي مستفحل، إلى الإشادة به وبإنجازاته!

وعلى رغم هذا الادعاء فإن ما سجل حتى الآن من وقائع يدل في مجمله على أن مثل تلك الممارسات التي رآها العالم أقرب إلى أن تكون ظاهرة عامة تمارس على نطاق واسع، وربما يكون انكشاف المزيد منها في الطريق الآن. ويمكننا المضي أكثر من ذلك لاستنتاج أن الصور التي عرضت أو التي ستعرض قريباً، لم تكن، في الواقع، سوى الجزء الظاهر من جبل الثلج، من الممارسات التي من المحتمل جدا أن يتعرض لها موقوفون محرومون من حق الدفاع. والمفارقة هنا، في الحالة الأميركية، كبيرة. فالولايات المتحدة التي زعمت أنها ستحرر العراقيين، وبررت بذلك القصف الشديد لبلدهم، نراها الآن تسجنهم في ظروف قاسية وقبل كل شيء لأسباب بالغة التعسف والاعتباطية. ذلك أنه ليس فقط من حملوا السلاح ضد الأميركيين هم من عوملوا بتلك الطريقة (وهو ما سيكون بالتالي غير شرعي، ولا يمكن الدفاع عنه أخلاقيا)، ولكن تعرض لهذه الممارسات أيضاً أشخاص كان ذنبهم الوحيد هو أن حظهم العاثر جعلهم يقعون في قبضة الاعتقال لدى الأميركيين. أليس من مهمات قوات الاحتلال العمل على عدم حدوث أعمال من هذا القبيل؟ ثم، ألسنا هنا نرى تكرار المنطق نفسه الذي أقيم على أساسه سجن جوانتانامو، والذي تم بموجبه استبعاد أي أثر للقانون الدولي، في ما شاع من إجراءات في ذلك السجن الرهيب؟

ويستطيع المرء أن يتصور بسهولة، لو أن جنوداً عراقيين كانوا هم من مارسوا مثل تلك الأفعال بحق جنود أميركيين أسرى لديهم، أن الرئيس بوش كان سيسرع بتحميل النظام العراقي المسؤولية الكاملة، وكان سيعتبره نظاما

www.ethraadl.com

إثراء المعارف الرقمية

لا يحترم القيم والمواثيق الدولية، وما كان الرئيس الأميركي طبعاً سيقبل بأي وجه نسبة تلك الأفعال إلى مجرد تصرفات فردية من جنود محبطين. ولم يكن الأميركيون ليعتبروا أن الأضرار الناجمة عن مثل تلك الممارسات هي أضرار محدودة أو حالات منعزلة. ولنصل الآن بالمشهد إلى الذروة: ما الذي كان سيقع تحديداً لو أن جنوداً أميركيين تعرضوا للاعتداء الجنسي من قبل عراقيين؟

أول ما يمكننا توقعه على الفور هو أن ردود فعل وإدانة واحتجاجات الحكومات عبر العالم كانت، بكل تأكيد، ستكون أشد قوة وحدّة بكثير. وعلينا أن نقولها بصراحة ووضوح. إن الممارسات الفضائحية وغير المقبولة لا تكون أقل مدعاة للاستهجان، ولا تفقد شيئا من انحطاطها وشرّها، فقط لأن أميركيين هم من اقترفوها. إن قوة الأميركيين اللامتناهية مثلما أنها تعطيهم حقوقا فهي تفرض عليهم أيضا التزامات عليهم الوفاء بها كاملة غير منقوصة. ولكننا، نشهد الآن، للأسف، سقوطاً أخلاقياً مريعاً، يبدو أن ما يتصف به جورج بوش والمحيطون به، من توحّد autisme سياسي ونفسي، يزيده سوءاً على سوء.

إن الولايات المتحدة على أرض الواقع تعمل على تجسيد ما هو معاكس لما ترفعه من شعارات ومبادئ، تعلي من شأنها نظرياً. وهنا خرج مبدأ "ازدواجية المعايير" لدى الأميركيين معززاً بالممارسة، على رغم كل هذا الإنكار المتواصل الذي طالما كررته واشنطن. والسؤال هنا هو: كيف يمكن التفكير جدياً في محاربة الإرهاب، في الوقت نفسه الذي يتبنى فيه الأميركيون سياسة، تعطي، بغض النظر عن الادعاءات والكلام الأجوف، انطباعاً باحتقار العرب والرغبة في إذلالهم؟ لقد قالت والدة المجندة ليندي إنغلاند إن خطأ ابنتها الوحيد هو أنها كانت متواجدة في "المكان الغلط، وفي الزمان الغلط". لكن، مَن أجبرها، لو كان لديها حقاً أدنى درجات الوعي أو إحساس بأقل معاني الكرامة الإنسانية، أن تشترك في فعل مقرف ومشين كذلك الذي تصدرته صورها عبر العالم؟ على العكس بدت كما لو أنها سعيدة، أو مرتاحة للاشتراك في ما يشبه المزاح بين أصدقاء. ثم، ما هذه العبارة: "في الزمان الغلط، وفي المكان الغلط"؟ نعم، الزمان خطأ، والمكان خطأ، ما في ذلك شك، ولكن المقصود بموجب المنطق الأميركي ينبغي أن يكون واضحاً، وهو أن الجنود الأميركيين ما كان يجب أن يبقوا خلال سنة 2004 في العراق. ولاحظ أن ما يفترض أن يقع الاعتراض عليه لا ينبغي أن يكون الجنود محل الحديث فقط، بل الاحتلال العسكري نفسه من حيث المبدأ.

إن على الغربيين أن يعوا بشكل واضح أن ما يكرهه الآخرون بشدة ليس منظومتهم القيمية، وإنما تناقضهم هم أنفسهم مع هذه القيم، حين يتنكرون لها ولا ينصاعون لمحدداتها الأخلاقية التي يزعمون مع ذلك أنها مطلقة وكونية وصالحة لكل زمان ومكان!.

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية